التعايش الإنساني فطرة عذبة وحياة مغرية

عبد الله العلوي

في بعض الأحايين تصبح الثقافة نارا مسعورة على المجتمعات، فلا تبقي شيئا إلا وتنهب منه روحه وكينونته التي انبنى عليها، وسار على نهجها عصورا متتالية، في الجانب الآخر قد تصبح هذه الثقافة ملاذا وملجأ هانئا، بحيث يبعث فيه الحب والأنس، والتقبل، وهذا قائم على مدى ثقافة الرأي والرأي الآخر، وإنّ مقال «تعايش الثقافات والقيم الإنسانية» لهارالد موللر، بترجمة إبراهيم هشهش يعطينا نموذجا وقراءة متمعنة لمدى أهمية الثقافة في المجتمعات رغم اختلافها، شريطة التعايش بين بعضها البعض.

يعد مصطلح الثقافة مصطلحا حديثا، يعبر عن تصرف أو سلوك أمّة وما تعتقد به، وهو عبارة عن المعرفة العلمية والعملية المكتسبة، التي تدخل في طيّاتها جوانب معيارية، اتفقت عليها تلك الأمّة في عيشها والتجانس فيما بينها، وتتضح ذلك من خلال سلوك الإنسان الواعي في تعاملاته المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والسياسية وغيرها من التعاملات مع من حوله، وقد استخدمت الثقافة في هذا العصر على أنّها دلالة على الرقي الأدبي والفكري والاجتماعي للأفراد والجماعات، فالثقافة ليست مجموعة أفكار فحسب بل هي سلوك يرسم طريق الحياة إجمالًا، والثقافة هي روح الأمة، وهي هويتها، بل هي الركيزة الأساسية التي تبني أمة بعينها، وتنهض بمقوماتها وخصائصها المختلفة.

لقد مر التاريخ الإنساني على ثقافات متنوعة، وحضارات بنت نفسها بنفسها ومن ذلك الثقافة اليونانية والثقافة الرومانية والثقافة الهندية، والثقافة المصرية الفرعونية والثقافة الفارسية، ثم جاءت الثقافة الإسلامية بعدها، إلى أن وصلنا إلى زمن تعيش فيه كل هذه الثقافات على سقف واحد، وأرض واحدة، في مقابل ذلك لا يمكن القول إنّ هذه الثقافات هي ثقافات بدأت من الصفر بل هي عبارة عن تراكم إنتاج بشري متنوع في مجالات مختلفة من الحياة الإنسانية، نتجت منها ثقافة متكاملة سميت حينها أو بعدها الثقافة الفلانية.

ويعتبر التعايش نوعًا من أنواع الثقة المتبادلة بين أنواع الثقافات في المجتمع الواحد، ويهدف إلى إيجاد ساحة وأرضية رحبة تتفق عليها الأطراف المختلفة، ويتم ذلك عن طريق الاقتناع الداخلي، والرضا والاختيار، كما أنّه يهدف إلى خدمة الأمور الرافعة لقيمة الإنسان.

إنّ كينونة الطبيعة البشرية تتميز بحبها للاطلاع، وحبها للتعدد بشكل أساسي، سواء تعلق هذا التعدد بنوعه، أو بجنسه أو بعرقه، أو بثقافته، أو بدينه، أو بأي شيء يخصه، وهذه الميزة (التعدد) تميّز بها الحضارات القديمة والحديثة، كذا الشعوب والمجتمعات الواحدة، والثقافات المختلفة والواحدة، وهذا – في وجهة نظري- هو السبب الذي جعل النوع البشري حيًا لهذا اليوم، رغم وقوع الحروب والقتال بين بعضه البعض بسبب اختلاف الثقافة.

تعد إزدواجية وحدة وتنوع الثقافات بعضها ببعض مطلبا أساسيا وفعّالا، فطبيعة الثقافة أنها بانية للمجتمعات لا هادمة لها، وهي تحافظ على الهوية المجتمعية، وتمنحها الانفتاح على الآخر في النواحي المعرفية والتقنية والفكرية، والتقاليد وغيرها، وهذا كله هو إغناء للثقافات ذاتها، ويفضي كذلك إلى إنجازات خلّاقة بفضل هذا الهجين المتنوع والمتفرد، الذي يعطيها شيئا من الانفراد بسبب اطلاعها المتواصل على ما عند الآخر.

ما إن نطل قليلًا على الحياة المدنية الحديثة نجد ما للتغير البنائي للمجتمع الحديث من إيجابية تجعل التعايش فيما بينه أمرًا لا مناص منه، فما تجد مجتمعًا حتى ينعشك فيه من الاختلاف النوعي والكمي والقيمي في الفكرة الواحدة، وهذا التنوع وإن كان يخالف في بعضه القيم الدينية لذات المجتمع الذي تراكمت عليه ثقافة معينة، إلا أنه يستقبل الفكرة الأخرى بكل رحابة صدر، شريطة أن تمارس فكرتك الدخيلة دون المساس بالطرف الآخر، فهنا تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخر في ممارسته لفكرته، فلا شك أنني عندما أدخل كنيسة وأقرأ فيها القرآن بصوت مرتفع، فهذا تعد على حريات الآخرين، ولا حق لك أن تقول بأن هذا تعايش للمجتمع، وتقبل للآخر، وهذا مما حرمه الدين الإسلامي، وعكسه صحيح حاصل.

لقد كفلت القوانين الشرعية والسماوية ثم القوانين البشرية التعايش الإنساني في جميع حالاته، سواء كان هذا التعايش هو دينيًا، أو عقائديًا، أو عقليًا، فقد جاء في المسيحية: "إن الحرية الحقيقية هي في الإنسان علامة مميّزة عن صورة الله، لأنّ الله تعالى أراد أن يتركه لمشورته الخاصة"، وهنا أذكر جملة جميلة قالها قداسة البابا شنوده الثالث – بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر- في لقاء الحوار المسيحي الإسلامي بالدوحة في عام ٢٠٠٤م، حيث يقول: "كلنا متدينون، فالمسلم متدين والمسيحي متدين، وكلنا نعبد الله، وكلنا نحب الفضيلة، بقي أن نعمل معًا بالحوار، يمكن لكل منا أن يفهم الآخر، وأن يكشف الخير الذي فيه، ويحب الخير الذي فيه"، وقد دعاء القرآن في آيات كثيرة إلى التعايش الإنساني، فقال الله تعالى: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا» (يونس ٦٩)، ويقول كذلك: «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي» (البقرة:٢٥٦)، وهكذا بقية الديانات جاءت كافلة لحرية اعتناق الأديان والفكر الذي يجده الإنسان مناسبًا له، ودعت بدعوات صريحة إلى التعايش الإنساني الذي جاءت به الفطرة الإنسانية، وإذا رجعنا للتاريخ الإسلامي فهناك نموذج حي في المدينة التي يسكنها الرسول الكريم، فقد عاش في المدينة اليهود والمسلمون.

وما إن نطل على القوانين الوضعية والبشرية، حتى نجد أنّها كفلت حق ممارسة الدين والعقيدة والمذهب والفكر الذي يريده، فقد جاء في الدستور الجزائري في المادة (٣٦)، يقول نص المادة: «لا مساس بحرمة المعتقد، وحرمة حرية الرأي»، والمادة التي قبلها تقول: «يعاقب القانون على المخالفات المرتكبة ضد الحقوق والحريات، وعلى كل ما يمس سلامة الإنسان البدنية والمعنوية»، ووفقا للميثاق العربي لحقوق الإنسان جاء النص التالي: «لا يجوز فرض قيود على الحقوق والحريات المكفولة بموجب هذا الميثاق سوى ما ينص عليه القانون، ويعتبر ضروريًا لحماية الأمن والاقتصاد الوطنيين أو النظام العام أو الصحة العامة والأخلاق وحقوق وحريات الآخرين»، وجاء في النظام الأساسي العماني في المادة (٢٨) نصه: «حرية القيام بالشعائر الدينية، طبقًا للعادات المرعية مصونة على ألا يخل ذلك بالنظام العام، أو ينافي الآداب»، والمادة التي بعدها تقول: «حرية الرأي والتعبير عنه بالقول والكتابة وسائر وسائل التعبير مكفولة في حدود القانون»، وهكذا في كل النصوص القانونية والدساتير العالمية الوضعية تنصف بكفالة حرية الفكر والتعايش.

كل ذلك كان نتاجًا للتعايش الإنساني للمجتمع الحضاري، والمجتمع الحديث، وهذه هي الفطرة الإنسانية الحقيقية. «إن المجتمعات الإنسانية القائمة على التعددية تواجه مشاكل الاختلاف الديني والتنوع الثقافي والتباين القيمي، بسبب تباين الخلفيات المؤسسة لهذا التعدد، وهي مشاكل يمكن التعامل معها بوعي يحول التناقض إلى تكامل، والتصادم إلى تعايش، والتعصب إلى تسامح، ويمكن التعامل معها بانفعال يزيد النار اشتعالاً».

abdlla1991@gmail.com